٤ ـ موسى الهادي وأمهات أولاده

«موسى بن محمد المهدي بن المنصور» وأمه «الخيزران بنت عطاء» وأخوه لأمه وأبيه «هارون الرشيد»، ويكنى «أبا محمد»، ولد بالري سنة سبع وأربعين ومائة، وبويع له بالخلافة إثر وفاة أبيه «المهدي» وبعهد منه.

ونقل «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: قال الخطيب: ولم يل الخلافة قبله أحد في سنه، فأقام فيها سنة وشهراً، وكان أبوه أوصاه بقتل الزنادقة، فَجَدَّ في أمرهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكان يسمى «موسى أطْبِقْ» لأن شفته العليا كانت تقلص، فكان أبوه وكَّل به في صغره خادماً كلما رآه مفتوح الفم قال: «موسى أطبقِ»، فيضيق على نفسه، ويضم شفتيه، فَشُهِر بذلك.

قال الذهبي: وكان يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حماراً فارهاً، ولا يقيم أبهة الخلافة، وكان مع ذلك فصيحاً، قادراً على الكلام، أديباً تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة.

وقال غيره: كان جباراً، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُرْهَفَة، والأعمدة، والقسي المُوتَرة، فاتَّبعه عماله في ذلك، وكثر السلاح في عصره[1]. ومن أخباره، أخرج الخطيب، عن الفضل، قال: غضب «الهادي» على رجل، فكلم فيه، فرضي، فطهب يعتذر، فقال له «الهادي» إن الرضا قد كفاك مؤونة الاعتذار.

وعن عبد الله بن مصعب، قال: دخل «مروان بن أبي حفصة» على «الهادي»، فأنشده مديحاً له، حتى إذا بلغ قوله:

تشابه يوماً بأسه ونواله ... فما أحد يدري لأيهما الفضل

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٦.

فقال له «الهادي»: أيُما أحب إليك ثلاثون ألف مُعَجَّلة، أو مائة ألف تدور في الديوان؟ قال: تُعَجَّل الثلاثون ألفاً، وتدور المائة ألف، قال: بل تعجَّلان لك جميعاً، فحُمِلَ له ذلك[١].

وكان «الهادي» قد اتخذ عدداً من أمهات الأولاد، وقد ذكر «ابن جرير» في تاريخه: وكان له من الأولاد تسعة؛ سبعة ذكور وابنتان، فأما الذكور فأحدهم «جعفر» ـ وهو الذي كان يرشحه للخلافة ـ و«العباس» و«عبد الله» و«إسحاق» و«إسماعيل» و«سليمان» و«موسى بن موسى» الأعمى؛ كلهم من أمهات أولاد.

وكان الأعمى ـ وهو «موسى» ـ ولد بعد موت أبيه، والابنتان إحداهما «أم عيسى» كانت عند «المأمون»؛ والأخرى «أم العباس بنت موسى»، تلقب «نُوتة»[٢].

وفي «العقد الفريد»: تزوج «أمة العزيز» فأولدها «عيسى»، ثم «رحيم» فأولدها «جعفراً» ثم «سعوف» فأولدها «العباس»[٣].

وكانت أمه «الخيزران» تتدخَّل في شؤون عمله، وتفرض رأيها عليه، كما كان حالها أيام والده «المهدي»، وكان «الهادي» يلبي لها جميع مطالبها، ولما أراد «الهادي» أن يقصي أخاه «الرشيد» عن ولاية العهد ويجعلها لابنه «جعفر» عارضته أمه «الخيزران» فاستفحل الشر بينهما، وبات لا يقضي لها حاجاتها ومطالبها، وفكَّر كل منهما بالتخلص من الآخر، فأي ملك هذا الذي يغري الأم بقتل ابنها، والابن بالتخلص من أمه؟

قال «ابن جرير الطبري» في تاريخه: عن يحيى بن الحسن؛ إن «الهادي» نابذ أمه ونافرها، لما صارت إليه الخلافة، فصارت «خالصةُ» إليه يوماً، فقالت: إن أمك تشتكيك، فأمر لها بخزانة مملوءة كسوة، قال: ووجد للخيزران في منزلها من قراقر الوَشي ثمانية عشر ألف قرقر ـ من لباس المرأة ـ.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٧.
(٢) تاريخ الطبري (٨/ ٢١٤).
(٣) العقد الفريد (٥/ ١١٦).

قال: وكانت «الخيزران» في أول خلافة «موسى» تفتات عليه في أموره ـ أي: تنفرد وتستبدُّ ـ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألَّا تخرجي من خفَر الكفاية إلى بَذَاذة التبذُّل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر المُلْك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلِك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك.

قال: وكانت «الخيزران» في خلافة «موسى» كثيراً ما تكلمه في الحوائج، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانْثَالَ الناس عليها، وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها؛ قال: فكلَّمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فاعتلَّ بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: وإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، قال: فغضب «موسى» وقال: ويل على ابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله! لاَ قَضَيْتُها لك، قالت: إذاً، والله! لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً، والله! لا أبالي، وحمي وغضب، فقامت مُغْضَبَة، فقال: مكانك تستوعي كلامي، والله! وإلَّا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي، أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربَنَّ عنقه، ولأقبِضَنَّ ماله؛ فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مِغْزَلٌ يشغلك، أو مصحفٌ يُذكرك، أو بيتٌ يصُونك؟ إياك، ثم إياك، ما فتحت بابك لمِلِّيٍّ أو لذِمِّيٍّ، فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مُرَّة بعدها.

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي، قال: سمعت «خالصة» تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث «موسى» إلى أمه «الخيزران» بأرزَّة، وقال: استطبتُها فأكلتُ منها، فكلي منها.

قالت «خالصة»: فقلت لها: أمسكي حتى تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه، فجاءوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه؛ فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيتِ الأرزَّة؟ فقالت: وجدتُها طيبة، فقال: لم تأكلي، ولو أكلتِ لكنتُ قد استرحتُ منك، متى أفلح خليفة له أم؟

قال: وحدثني بعض الهاشميين، أن سبب موت «الهادي» كان أنه لمَّا جَدَّ في خلع «هارون» والبيعة لابنه «جعفر»، وخافت «الخيزران» على «هارون» منه، دسَّت إليه من جواريها لمَّا مرض مَنْ قتله بالغم والجلوس على وجهه، ووجهت إلى «يحيى بن خالد»: إن الرجل قد تُوُفِّي، فاجْدُدْ في أمرك ولا تقصِّر.

وذكر محمد بن عبد الرحمٰن بن بشار أن «الفضل بن سعيد» حدثه، عن أبيه، قال: كان يتصل بموسى وصول القواد إلى أمه «الخيزران» يؤملون بكلامها في قضاء حوائجهم عنه، قال: وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي؛ فكان يمنعها من ذلك، ويقول: ما للنساء والكلام في أمر الرجال؟ فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيُّما خير؟ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين!

قال: فأيما خير، أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك، يا أمير المؤمنين، قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا: فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أجد منا يحب ذلك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها أَلْبَتَّةَ، فشَقَّ عليها ذلك فاعتزلته، وحلفت ألَّا تكلمه؛ فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

وكان السبب في إرادة «موسى الهادي» خلع أخيه «هارون» حتى اشتد عليه في ذلك وجَدَّ ـ فيما ذكر «صالح بن سليمان» ـ أن «الهادي» لما أفضت إليه الخلافة أقَرَّ «يحيى بن خالد» على ما كان يلي «هارون» من عمل المغرب؛ فأراد «الهادي» خلع «هارون الرشيد» والبيعة لابنه «جعفر بن موسى الهادي»، وتابعه على ذلك القواد، منهم «يزيد بن مزيد» و«عبد الله بن مالك» و«علي بن عيسى» ومن أشبههم، فخلعوا «هارون»، وبايعوا لجعفر بن موسى، ودسُّوا إلى الشيعة، فتكلموا في أمره، وتنقَّصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر «الهادي» ألَّا يُسَارَ قُدَّام «الرشيد» بِحَرْبَة، فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يسلِّم عليه ولا يقربه.

وكان «يحيى بن خالد» يقوم بإنزال «الرشيد» ولا يفارقه هو وولده ـ فيما

ذكر ـ قال «صالح» وكان «إسماعيل بن صبيح» كاتب «يحيى بن خالد»، فأحب أن يضعه موضعاً يتعلم له فيه الأخبار، وكان «إبراهيم الحَرَّاني» في موضع الوزارة لموسى، فاكتتب «إسماعيل»، ورفع الخبر إلى «الهادي»، وبلغ ذلك «يحيى بن خالد» فأمر «إسماعيل» أن يشخص إلى حرَّان، فسار إليها، فلما كان بعد أشهر، سأل «الهادي»، «إبراهيم الحراني»: مَنْ كاتبُك؟ قال: فلان كاتب، وسَمَّاه، فقال: أليس بلغني أن «إسماعيل بن صُبَيْح» كاتبك؟ قال: باطل، يا أمير المؤمنين «إسماعيل» بحرَّان.

قال: وسُعي إلى «الهادي» بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من «هارون» خلاف، وإنما يفسده «يحيى بن خالد» فابعث إلى «يحيى» وتهدده بالقتل، ارمه بالكفر؛ فأغضب ذلك «موسى الهادي» على «يحيى بن خالد».

وذكر «أبو حفص الكرماني» أن «محمد بن يحيى بن خالد» حدثه، قال: بعث «الهادي» إلى «يحيى» ليلاً، فأيس من نفسه، وودَّع أهله، وتحنَّط، وجدَّد ثيابه، ولم يشك أنه يقتله، فلما أدخل عليه، قال: يا يحيى! ما لي ولك؟ قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين! فما يكون من العبد إلى مولاه إلَّا طاعتُه، قال: فلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليَّ؟ قال: يا أمير المؤمنين! من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيَّرني «المهدي» معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك، فانتهيتُ إلى أمرك.

قال: فما الذي صنع «هارون؟» قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده، قال: فسكن غضبه، وقد كان «هارون» طَابَ نفساً بالخلع، فقال له «يحيى»: لا تفعل، فقال: أليس يترك الهنيء والمريء، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي؟ وكان «هارون» يجد بأم جعفر وجداً شديداً، فقال له «يحيى»: وأين هذا من الخلافة؟ ولعلك أن يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع؛ ومنعه من الإجابة.

قال الكرماني: فحدثني صالح بن سليمان، قال: بعث «الهادي» إلى «يحيى بن خالد» وهو بعيساباذ ليلاً، فراغه ذلك، فدخل عليه وهو في خَلْوة، فأُمِرَ بطلب رجل كان أخافه، فتغيَّب عنه، وكان «الهادي» يريد أن ينادمه، ويمنعه

مكانه من «هارون» فنادمه وكلمه «يحيى» فيه، فآمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده، وقال: هذا أمانه، وخرج «يحيى» فطلب الرجل، وأتى «الهادي» فسُرَّ بذلك. قال: وحدثني غير واحد أن الرجل الذي طلبه كان «إبراهيم الموصلي».

قال «صالح بن سليمان»: قال «الهادي» يوماً للربيع: لا يدخل عليَّ «يحيى بن خالد» إلَّا تأخر الناس، قال: فبعث إليه «الربيع»، وتفرَّغ له، قال: فلما جلس من غدٍ، أذن حتى لم يبقَ أحد، ودخل عليه «يحيى» وعنده «عبد الصمد بن علي» و«العباس بن محمد»، وجِلَّةُ أهله وقواده، فما زال يدنيه حتى أجلسه بين يديه، وقال له: إني كنت أظلمك وأكفرك، فاجعلني في حِلٍّ، فتعجب الناس من إكرامه إياه، وقوله، فقبل «يحيى» يده وشكر له، فقال له «الهادي»: مَنِ الذي يقول فيك يا يحيى:

لو يَمَسُّ البخيل راحة يحيى ... لسَخَت نفسُه ببذل النوال

قال: تلك راحتك يا أمير المؤمنين! لا راحة عبدك.

قال: وقال «يحيى» للهادي في خلع «الرشيد» لما كلمه فيه: يا أمير المؤمنين! إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت؛ ولي في هذا تدبير.

ثم قال «أبو جعفر الطبري»:

قال الكرماني: فحدثني «يزيد» مولى «يحيى بن خالد»، قال: بعثت «الخيزران»، «عاتكة» ـ ظئراً كانت لهارون ـ، إلى «يحيى»، فشقَّت جيبها بين يديه، وتبكي إليه وتقول له: قالت لك السيدة: اللهَ اللهَ في ابني لا تقتله، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه، فبقاؤه أحب إليَّ من الدنيا بِجُمْع ما فيها، قال: فصاح بها، وقال لها: وما أنت وهذا؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنُقْتَل قبله، فإن اتُّهِمْتُ عليه، فلست بمتَّهم على نفسي ولا عليهم، قال: ولما لم ير «الهادي»، «يحيى بن خالد» يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام وإقطاع وصلة، بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكفَّ عنه.

قال: فلم تزل تلك الحال من الخوف والخطر، وماتت «أم يحيى» وهو في «الخلد» ببغداد، لأن «هارون» كان ينزل «الخلد»، و«يحيى» معه، وهو ولي العهد، نازل في داره، يلقاه في ليله ونهاره.

وذكر «محمد بن القاسم بن الربيع»، قال: أخبرني محمد بن عمرو الرومي، قال: حدثني أبي، قال: جلس «موسى الهادي» بعدما ملك في أول خلافته جلوساً خاصاً، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر، و«إبراهيم بن سالم بن قتيبة والحَرَّاني»، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم له أسود يقال له: «أسلم»، ويكنَّى «أبا سليمان» وكان يثق به ويقدمه، فبينا هو كذلك، إذ دخل «صالح» صاحب المصلَّى، فقال: «هارون بن المهدي» فقال: ائذن له، فدخل فسلَّم عليه، وقبَّل يديه، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية، فأطرق «موسى» ينظر إليه، وأدمن ذلك، ثم التفت إليه، فقال: يا هارون! كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْط العَتَاد ـ يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة عظيمة ـ تؤمِّل الخلافة؟ قال: فبرك «هارون» على ركبتيه، وقال: يا موسى! إنك إن تجبَّرت وَضُعْتَ، وإن تواضعت رُفِعْتَ، وإن ظلمتَ خُتِلْتَ، وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليَّ، فأُنصِفَ من ظلمتَ، وأصل من قطعت، وأُصيِّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام «المهدي».

قال: فقال «موسى»: ذلك الظن بك، يا أبا جعفر! ادْنُ مني، فدنا منه، فقبَّل يديه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال له: لا، والشيخ الجليل، والملك النبيل ـ أعني أباك «المنصور» ـ لا جلست إلَّا معي، وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرَّاني! احمل إلى أخي ألف ألف دينار؛ وإن افتُتِحَ الخراج فاحمل إليه النصف منه، واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة، فيأخذ جميع ما أراد، قال: ففعل ذلك.

ولما قام قال لصالح: ادن دابته إلى البساط، قال «عمرو الرومي»: وكان «هارون» يأنس بي، فقمت إليه فقلت: يا سيدي! ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال: قال «المهدي»: أُريتُ في منامي كأني دفعتُ إلى «موسى» قضيباً،

وإلى «هارون» قضيباً، فأورق من قضيب «موسى» أعلاه قليلاً، فأما «هارون» فأورق قضيبه من أوله إلى آخره، فدعا «المهدي» الحاكم بن موسى الضمريَّ ـ وكان يكنى أبا سفيان ـ فقال له: عَبِّرْ هذه الرؤيا، فقال: يملكان جميعاً، فأما «موسى» فتقل أيامه، وأما «هارون» فيبلغ مدى ما عاش خليفته، وتكون أيامه أحسن أيام، ودهره أحسن دهر، قال: ولم يلبث إلَّا أياماً يسيرة، ثم اعتلَّ «موسى» ومات، وكانت علته ثلاثة أيام.

قال «عمرو الرومي»: أفضت الخلافة إلى «هارون»، فزوج «حمدونة» من «جعفر بن موسى» و«فاطمة» من «إسماعيل بن موسى» ووفَّى بكل ما قال، وكان دهره أحسن الدهور.

وذكر أن «الهادي» كان قد خرج إلى الحديثة ـ حديثة الموصل ـ فمرض بها، واشتد مرضه، فانصرف، فذكر «عمرو العسكري» ـ وكان في الخدم ـ قال: انصرف «الهادي» من الحديثة بعدما كتب إلى جميع عماله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه، فلما ثقل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى «يحيى» قَتَلَنا ولم يَسْتَبْقِنَا، فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى «يحيى» بأمر «الهادي» فيضرب عنقه، ثم قالوا: لعل أمير المؤمنين يفيق من مرضه، فما عذرنا عنده؟ فأمسكوا.

ثم بعثت «الخيزران» إلى «يحيى» تعلمه أن الرجل لمآبه، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي؛ وكانت المستولية على أمر «الرشيد» وتدبير الخلافة إلى أن هلك، فأُحْضِر الكتابُ، وجُمِعُوا في منزل «الفضل بن يحيى»، فكتبوا لليلتهم كتباً من «الرشيد» إلى العمال بوفاة «الهادي»، وأنهم قد وَلَّاهم «الرشيد» ما كانوا يلُون، فلما مات «الهادي» أنفذوها على البُرُد.

وذكر «الفضل بن سعيد»، أن أباه حدثه أن «الخيزران» كانت قد حلفت ألَّا تكلِّم «موسى الهادي»، وانتقلت عنه، فلما حضرته الوفاة، وأتاها الرسول فأخبرها بذلك، فقالت: وما أصنع به؟ فقالت لها «خالصة»: قومي إلى ابنك أيتها الحرة! فليس هذا وقت تعتُّب ولا تغضُّب. فقالت: أعطوني ماء أتوضأ للصلاة، ثم قالت: أَمَا إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويولد

خليفة، قال: فمات «موسى»، وملك «هارون»، وولد «المأمون».

قال «الفضل»: فحدثت بهذا الحديث «عبد الله بن عبيد الله»، فساقه لي مثل ما حدثنيه أبي، فقلت: فمن أين كان للخيزران هذا العلم؟ قال: إنها كانت قد سمعت من «الأوزاعي».

ذكر «يحيى بن الحسن» أن «محمد بن سليمان بن علي» حدثه، قال: حدثتني عمتي «زينب بْنَةُ سليمان»، قالت: لما مات «موسى» بعيساباذ، أخبرتنا «الخيزران» الخبر، ونحن أربع نسوة، أنا وأختي و«أم الحسن» و«عائشة»، بُنَيَّات «سليمان»، ومعنا «ريطة أم علي»، فجاءت «خالصة»، فقالت لها: ما فعل الناس؟ قالت: يا سيدتي مات «موسى» ودفنوه، قالت: إن كان مات «موسى» فقد بقي «هارون»، هات لي سويقاً، فجاءت بسويق، فشربت وسقتنا، ثم قالت: هات لساداتي أربعمائة ألف دينار، ثم قالت: ما فعل ابني «هارون؟».

قالت: حلف أَلَّا يصلي الظهر إلَّا ببغداد، قالت: هاتوا الرحائل، فما جلوسي هُنا، وقد مضى؟ فلحقته ببغداد[1].

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة، وافى «الخيزرانَ» أجلُها فخرج ابنها أمير المؤمنين «هارون الرشيد» في جنازتها، وقد أخذ بقائمة سريرها، وكان يعدو حافياً في الطين، فلما بلغوا بها مقابر قريش، غسل رجليه، ثم دعا بخف وصلى عليها، ودخل قبرها، وأفل نجم «الخيزران» امرأة الخليفة «المهدي» وأم الخليفتين «موسى» و«هارون».

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٢٠٥ ـ ٢١٣).